# الفصل الثانى

# الجاهلية

بدأ محمد (ﷺ) التحدث عن الوحى لمجموعة صغيرة من أصدقائه وأقربائه المقربين، الذين أصبحوا حواريين متعاطفين ومتحمسين، مقتنعين أنه نبى العرب الذى طال انتظاره. ولكن أدرك محمد (ﷺ) أن معظم قريش سوف تعتبر ذلك أمرًا لا يمكن قبوله؛ لأن معظم رسل الله كانوا رموزًا ضخمة فى مجتمعاتهم، ومؤسسة لها، وكان بعضهم أصحاب معجزات، فكيف يمكن قياس محمد بموسى أوَ عيسى (صلوات الله عليهم)؟. لقد عاينته قريش وهو يشب، ويسعى فى الأسواق التجارية، ويأكل ويشرب مثل كل الناس. لقد تخلت قريش عن كثير من قيم المروءة، ولكنها استبقت مظاهر الصفوة والنخبة، وتوقعت أن يختار الله كبيرًا من أكثر العشائر تميزًا، وليس شخصًا صغيرًا من بنى هاشم. كيف سيكون رد فعلهم عندما يطلب منهم محمد (ﷺ) أن يتخلوا عن استغنائهم المتغطرس، فيتخلوا عن سنة أجدادهم؟.

منذ البداية، واجه محمد (ﷺ) المعارضة حتى داخل عائلته الكبيرة. فقد آمنت خديجة وأبناؤهما وعلى وزيد بنبوته، إيمانًا غير مشروط، وبرغم أن عمه أبا طالب استمر على حبه وتأييده له، فقد آلمه بعمق تهور محمد (ﷺ) فى ترك دين آبائه. كان محمد (ﷺ) يقسم العائلة، فقد آمن به جعفر بن أبى طالب، وعبد الله وأخوه عبيد الله بن جحش، وأختهما زينب، ولكن عميه العباس وحمزة لم يؤمنا، برغم أن زوجتيهما آمنتا. ورفض أبو العاص زوج زينب بنت محمد (ﷺ) مجرد التفكير فى الدين الجديد، وبالطبع كان هذا يحزن محمدًا (ﷺ). كان ترابط العائلة أحد قيم العرب المقدسة، واحترم محمد (ﷺ) ـ ككل العرب ـ كبار عشيرته وقبيلته، وتوقع

من الكبار أن يقودوا الآخرين إلى اتباعه، ولكن كانت الأجيال الشابة هى التى آمنت به. وبدأ الوحى ـ بالفعل ـ فى إبعاد محمد (ﷺ) عن الأعراف السائدة، ولم يمكنه تجاهل أن كثيراً من أتباعه كانوا من المستضعفين من الطبقات الدنيا. كان كثير منهم من النساء، ورجال محررين، وخدم وعبيد، وكان فى مقدمتهم بلال العبد الحبشى، ذو الصوت الجهورى الندى. وعندما كانوا يتجمعون للصلاة فى الحرم، كان يحيط به «صغار وضعفاء القوم». كان محمد (ﷺ) يرحب بهم بحرارة، ولكن لابد وأنه كان يتعجب، كيف تنجح حركة بمثل هؤلاء الخاملى الذكر؟. وفى الواقع، بدأ بعض كبار قريش يسألونه لماذا يرافق مثل هؤلاء الرعاع؟[1].

لم يكن كل «خاملى الذكر» من أدنى الطبقات المهمشة، فقد عنى ذلك المصطلح القبائل متواضعة العدد والنسب، وليست الفقيرة. كان أكثر تابعى محمد (ﷺ) حماسة صديقه عتيق بن عثمان، أبا بكر، التاجر الناجح الثرى، والذى جاء من عشيرة ضعيفة، تعرضت لأوقات عصيبة. كان أبو بكر سهل المعشر، ماهراً فى تأويل الأحلام.

> قال ابن إسحاق: «وكان أبو بكر رجلاً مألفًا لقومه، محببًا سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً تاجرًا، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه». [السيرة النبوية لابن إسحاق، ط دار الكتب العلمية، ص١٨٩].

كثيراً ما لجأ إليه شباب مكة الذين أزعجتهم شراسة رأسماليتها، طلبًا للنصيحة. أحس بعضهم بالخطر المحدق بالمجتمع المكى، وحذر من اليأس المحبط الذى وقع فيه، مع اغترابهم عن آبائهم. حلم ابن أحد كبار الممولين فى إحدى عشائر مكة ذات النفوذ، أن أباه يحاول أن يدفعه فى حفرة من نار، ثم أحس بيدين قويتين تنقذانه منها، وأدرك عند استيقاظه أن ذلك المنقذ كان محمداً (ﷺ).

قال ابن سعد: «كان إسلام خالد بن سعيد قديمًا وكان أول إخوته، أسلم وكان بدء إسلامه أنه رأى فى النوم أنه وقف على شفير النار، فذكر من سعتها ما الله به أعلم، ويرى فى النوم كأن أباه يدفعه فيها ويرى رسول الله آخذًا بحقويه لئلا يقع، ففزع من نومه فقال: أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق». [طبقات ابن سعد، ط دار الكتب العلمية: ٤/ ٥٢]: ٤/ ٨٨][٣].

شاب آخر، هذه المرة من عشيرة عبد شمس المهيبة، ذهب لأبى بكر ليسأله عن حلم سمع فيه صوتًا مناديًا فى الصحراء «استيقظوا أيها النيام!» معلنًا عن ظهور نبى فى مكة. أصبح الشابان مسلمين، ولكن أخفى الأول إسلامه عن أبيه لأطول فترة استطاعها، وأصاب الحنق الشديد كبار عشيرة الثانى، والتى كانت صاحبة أعلى نفوذ فى مكة.

قال ابن سعد: «خرج عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله على أثر الزبير بن العوام فدخلا على رسول الله (ﷺ)، فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن وأنبأهما بحقوق الإسلام ووعدهما الكرامة من الله، فآمنا وصدقا فقال عثمان: يا رسول الله، قدمت حديثًا من الشام فلما كنا بين معان والزرقاء، فنحن كالنيام، إذا مناد يناديا أيها النيام هبوا، فإن أحمد قد خرج بمكة، فقدمنا فسمعنا بك». [الطبقات: ٤/ ٥٢][٤].

أظهر الوحى صدعًا داخل مكة، وبمضى السنوات عانت المدينة من انشقاق متزايد بين الشباب والكبار، والأثرياء والفقراء، وحتى الرجال والنساء. مَثَّل ذلك خطرًا. أدانت آيات الوحى عدم المساواة المكية، حيث يعانى الطرف المحروم على يدى الطرف الغانم الحارم. الهلاك هو مآل المجتمع المنقسم على نفسه، والانقسام هو ضد المعنى الحقيقى لكلمة مجتمع.

لقد كانت تلك فترة تاريخية مرعبة. بدت الحروب المستمرة بين الفرس والبيزنطيين وكأنها تبشر بنهاية النظام العالمى القديم، وحتى داخل بلاد العرب، بلغت الحروب مستوىً مزمنًا، وتصاعدت الغزوات فى العشرين سنة الأخيرة لتجثم فترات أطول فى حملات عسكرية ـ بعد أن كانت عمليات خاطفة ـ كنتيجة لموجات الجفاف غير المسبوقة وما تبعها من مجاعات. لقد كان هناك هاجس رؤيوى بكارثة وشيكة، واقتنع محمد

(ﷺ) بأنه لو لم تصلح قريش من أمورها وأساليبها، فستقع هى الأخرى فريسة للفوضى التى تهدد العالم:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الإسراء: ١٦][٥]

وبوحى إلهى، كان محمد (ﷺ) يتحسس طريقة لحل جديد كلية، مقتنعًا بأنه لا يتكلم باسمه وإنما هو يردد كلمات الله الموحاة له.

كان تلقى الوحى عملية شاقة مؤلمة، قال عنها النبى (ﷺ): «لم يأتنى الوحى إلا وظننت أن روحى ستزهق».

[قال السيوطى فى الإتقان]: أخرج ابن سعد، عن عائشة، قالت: «كان رسول الله (ﷺ) إذا نزل عليه الوحى يغط، ويتربد وجهه، [أى: يتغير لونه] ويجد بردًا فى ثناياه، ويعرق حتى يتحدرمنه مثل الجمان». [الإتقان، السيوطى ـ ط دار الكتب العلمية: ١/ ٩١]. وقد أخرج ابن سعد هذا الحديث برواية عبادة بن الصامت: أن النبى (ﷺ) كان إذا نزل عليه الوحى كرب له، وتربد وجهه. [الطبقات: ١/ ١٦٧][٦].

عن عائشة أم المؤمنين: أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله (ﷺ): «أحيانًا يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشد على، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لى الملك رجلاً، فيكلمنى فأعى ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا. [البخارى، ط دار الكتب العلمية: ح رقم٢][٧].

كان عليه الإصغاء للتيارات التحتية للأحداث، محاولاً أن يكتشف حقيقة ما يجرى. كان وجهه يشحب من المجهود، حتى أنه كان يغطى وجهه بردائه كما لو كان يحتمى من التأثير الإلهى الطاغى. كان يعرق بغزارة حتى فى اليوم البارد، وهو ينسحب داخله بحثًا فى روحه عن حل لمشكلة، فيما يشبه طريقة غوص الشاعر فى أعماق نفسه بحثًا عن مستوى الإدراك فى عقله. يأمر الله فى القرآن محمدًا (ﷺ) أن يتبع التنزيل، حتى ينقله كما هو تمامًا، قبل أن يأتى البيان الإلهى له:

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه: ١١٤]، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة القيامة: ١٦ ـ ١٨][٨].

لذلك، فقد تكلم الله إلى أهل مكة بواسطة القرآن، من خلال محمد (ﷺ)، كما تكلم خلال أنبياء بنى إسرائيل بواسطة الكتاب المقدس. لذلك، يعتبر المسلمون لغة القرآن مقدسة؛ لأنها حملت كلمات الله. عندما يستمع أتباع محمد (ﷺ) إلى كلام الله، عند قراءة محمد (ﷺ)، وبعده المقرئون، يشعرون أنهم فى لقاء مباشر مع الله. واللغة العبرية فى العهد القديم من الكتاب المقدس، ينظر لها بالقدسية نفسها. ولكن ليس للمسيحيين مثل هذا المفهموم فى اللغة (المقدسة)؛ لأنه ليس هناك مقدس فى العهد الجديد بلغته اليونانية، وإنما قدمت نصوص العهد الجديد عيسى (ﷺ) على أنه كلمة الله للإنسانية. يهيئ القرآن ـ مثل النصوص المقدسة الأخرى ـ لقاءً مع الله، عابرًا الفجوة الهائلة بين عالمنا الفانى الهش، والمقدس.

انتظر أتباع محمد (ﷺ) بلهفة كل تنزيل جديد، وبعد أن يتلوه عليهم، يحفظونه عن ظهر قلب، ويكتبه من يعرف الكتابة منهم. لقد أسرتهم بلاغته، والتى رأوا أنها لا يمكن إلا أن تكون إلهية المصدر، ومن الصعب على غير العرب تقدير جمال القرآن، والذى لا تحفظه الترجمة. يبدو النص كما لو كان تكرارًا مملاً، وليس له بنائية ظاهرة، ولا حجة مستدامة، ولا رواية منظمة. ولكن لم يُصمم القرآن ليقرأ مرة واحدة. تم ترتيب سوره فى شكله النهائى، بحيث تكون الأطول فى البداية والأقصر فى النهاية، مما جعل الترتيب يبدو اعتباطيًا. تحتوى كل سورة على تعاليم رئيسية، ومن الممكن الانهماك فى أى سورة من النص، واكتساب دروس حاسمة.

مثل معظم العرب فى ذلك العصر، لم يكن محمد (ﷺ) يستطيع القراءة أو الكتابة. تعنى كلمة قرآن «القراءة». لم تهدف الكلمة إلى قراءة منفردة منعزلة، ولكن مثل معظم النصوص الدينية، المقصود بها القراءة بصوت عال [لجماعة المستمعين]، وكان الصوت جزءًا من التأثير. كان الشعر مهمًا عند العرب، فكان شاعر القبيلة هو المتكلم باسمها، ومؤرخها الاجتماعى، ومرجعها الثقافى، وتعلم العرب بمرور السنين كيفية الإصغاء لإلقاء الشعر، وكيفية تطوير أذن تتقن النقد وتحكمه[٩]. روى شعراء

الملاحم غرائبهم فى أسواقهم السنوية، لإثارة المستمعين من كل أنحاء الجزيرة. أقامت مكة كل عام فى سوق عكاظ مسابقة للشعر، وطرزت القصيدة الفائزة بالذهب على قطعة ثمينة من القماش الأسود، وعلقتها على جدران الكعبة. كان باستطاعة أتباع محمد (ﷺ)، والعرب بصفة عامة، تذوق الشعر ونقده، ووجدوا تكرار الأفكار والكلمات والعبارات والرتابة الصوتية، بمثابة التغيرات فى القطعة الموسيقية، والتى تطنب برقة ودقة من اللحن الأصلى، وتزيد عليه طبقة فوق طبقة من التركيب. التكرار فى القرآن مقصود، فقد ربطت أصداؤه الداخلية أفكاره وصوره وقصصه لدعم تعاليمه الأساسية، مع تحويل التركيز، كما ربطت المقاطع التى بدت منفصلة، ودمجت الأفرع المختلفة للنص القرآنى، حيث أكملت أو قيدت أو وضحت، أية آيات أخرى. كان على المستمعين له ـ مثل محمد (ﷺ) ـ أن يتشربوا تعليماته بروية، وينمو فهمهم، بعمق ونضج، مع الوقت، وساعدتهم لغة القرآن الثرية، والحافلة بالتلميحات والإيقاعات الصوتية، على التأنى فى إعمال فكرهم، والدخول فى مزاج آخر من الوعى.

يصف العالم الأمريكى مايكل سيلز ماذا يحدث عندما يدير سائق النقل العام فى سيارته المزدحمة فى اليوم الحار فى مصر، شريط قرآن: «يبدأ جو من التأمل الهادئ، وينتهى التسابق على الكراسى، ويخفض المتكلمون من أصواتهم، وتقل حدتها، يصمت الآخرون، ويغيبون فى أفكارهم، ويحل شعور بالتآلف محل العناء»[١٠]. ضبط الأنفاس ممارسة مهمة فى كل تقاليد التأمل. وجد ممارسو اليوجا أن ذلك يجلب شعوراً بالانفراج، يمكن مقارنته بما تجلبه الموسيقى لعازفها[١١]. يقرأ مرتلو القرآن كلماته فى زفير بطىء طويل، وعندما يتوقفون لالتقاط النفس، يتركون صمتًا للتدبر والتأمل. من الطبيعى أن يضبط المستمعون أنفاسهم كذلك، ويجدوا فى ذلك تأثيراً مهدئًا شافيًا، يتيح لهم التقاط التعاليم الضمنية فى النص.

لا يدوى القرآن بأوامر هادرة من عل، ويغير الخطاب الإلهى من الإشارة لنفسه بصفة مستمرة فى القرآن، مثل «نحن»، «إنا»، «هو» «ربكم»، «الله»، «أنا»، ليغير علاقته بكل من النبى (ﷺ) والمستمعين. ولا يوضح القرآن أن الله ذكراً(*). تبدأ كل سورة

(*) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] تنفى عن الله مسألة الذكورة والأنوثة التى تنطبق على بعض مخلوقات الله، وكما قال على بن أبى طالب: «كل ما تخيلته، فليس هو».

بالبسملة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. الله اسم مذكر، ولكن الرحمن والرحيم، مشتقتان من كلمة الرحم. ستجد تقريبًا فى كل السور المبكرة النزول فى القرآن حديثًا عن الإناث، فمن تلميحات عن امرأة تحمل بطفل، أو تضع مولودًا، أو امرأة فقدت طفلها الوحيد، أو استغاثة مؤثرة من وليدة من وأد أبويها غير الراضيين عن ميلادها[١٢]. كان هذا الحضور القوى للإناث مثيرًا للانتباه فى مكة ذات المجتمع الشديد الذكورية، وقد يفسر ذلك لماذا كانت النساء من أول من استجاب لرسالة القرآن.

خاطب الله الأفراد بحميمية فى السور الأولى للقرآن، مفضلاً عرض كثير من تعاليمه فى شكل أسئلة: ألم تر؟ أفلا تبصرون؟ أفلا تعقلون؟ هل أتاك؟. دعا القرآن كل مستمع لمساءلة نفسه، وكان أى رد مبهمًا أو غير محدد، تاركًا للمستمع فضاء يتدبره ولكن بدون إجابة قاطعة. لم تكن تلك الديانة الجديدة تسعى لتأكيد يقين متجاوز للطبيعة، بل أراد القرآن أن يطور فى الناس نوعًا مختلفًا من الوعى:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴿١٨﴾﴾ [سورة الانفطار: ١٧ ـ ١٨]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة المطففين: ٨ ـ ٩، ١٩][١٣]

كان مفهوم اليوم الآخر المسيحى محوريًا فى الرسالة المبكرة للقرآن. واعتقد محمد (ﷺ) أن مكة صارت فى أزمة لأن قريشًا لم تعد تشعر بمسئولية حسابها عن أفعالها. فى الصحارى، قد يتكبر الكريم ويتغطرس بأنانيته، ولكنه يحس بالمسئولية عن جميع أفراد قبيلته. أما قريش، فقد كانت منشغلة فى تكديس ثرواتها دون اعتبار لمآسى «الضعفاء». بدت قريش وكأنها لا تدرك التبعات طويلة المفعول لأعمالها، ولمواجهة تلك الغفلة، علم القرآن الناس أن الله سوف يحاسبهم على أعمالهم، فى يوم الدين، ذلك اليوم الحق[١٤]. سيضطر الناس فى النهاية لمواجهة الحقائق التى حاولوا تجنبها، وستمر عليهم حياتهم برؤية عكسية رهيبة لوجودهم السابق، حيث يثبت لهم أن كل شىء اعتبروه فى حياتهم راسخًا ومهمًا ودائمًا، إنما هو زائل. تبدد سور أوائل التنزيل المتقطعة، بأسلوب بالغ الدقة والجمال، تلك الأوهام:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾، ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [سورة التكوير: ١ ـ ٧، ١٤][١٥].

ستختفى الشمس، والقمر، والنجوم، وستصبح إناث الجمال والماشية بلا قيمة، هى وما تحمله فى بطونها من مواليد. ولن تكون هناك قيمة إلا لما عمل الإنسان:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [سورة الزلزلة: ٦ ـ ٨][١٦].

الأفعال التى قد لا يكترث بها أو لها أحد فى الدنيا، ستثبت لها الأهمية الكبرى فى الآخرة، عمل صغير نابع من القسوة أو الأنانية، أو على العكس، عمل صغير نابع من الرحمة أو الكرم، قد يهوى بفاعله فى الآخرة، أو يرفعه الدرجات العلى:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة البلد: ١٣ ـ ١٧][١٧].

من سيأتى بأعمال العدل (الصالحات) سيكون مآله الفردوس الأعلى، أما من اتبع هواه وأنانيته فى كنز الأموال على حساب حقوق الآخرين، فسيكون مآله نار جهنم. ولكن لم يكن القرآن ينذر برؤية فجة للجحيم، وفقرات وصف الجحيم حزينة وليست غاضبة. فصَّل التراث الإسلامى كلاً من الجنة والجحيم ويوم الحساب، ولكن بقى القرآن متحفظًا، ولغته غامضة ومحيرة، فيما يخص تلك الغيبيات. الأكثر أهمية، أن القرآن يدفع مستمعيه لمواجهة «الحساب» فى الحاضر أيضًا. فيوم «الحساب» ليس هو فقط الآتى فى آخر الزمان، بل هو أيضًا «لحظة الحقيقة» هنا والآن. فالتحقيق والمساءلة الحميمة واستخدام الفعل المضارع، كل ذلك يدفع المستمعين للقرآن لمواجهة تبعات أعمالهم يومًا بيوم.

كيف يصبح حال الإنسان يوم الحساب عندما يدرك أنه أضاع حياته، وأن الوقت أصبح متأخرًا لتعويض ذلك؟

يذكر القرآن الناس بما يجب أن يفعلوه فى حياتهم ليكسبوها، وليكسبوا آخرتهم، حين يقول الإنسان: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴿٢٤﴾﴾ [سورة الفجر: ٢٤]. ويسأل القرآن بإلحاح ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴿٢٦﴾﴾ [سورة التكوير: ٢٦][١٨].

البشر ليسوا سيئين بالفطرة، ولكنهم ينسون، ويريدون أن يتغافلوا عن أفكارهم الفطرية بدفعها في غياهب عقولهم، ولذلك فهم فى حاجة دائمة للتذكير ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ١٢ ـ ٢٢][١٩]. يحث الله محمداً ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾. لذلك يجب على الناس أن يزنوا أفعالهم ويحاكموا أنفسهم، وأن يمارسوا فضيلة التقوى. يجب دائماً أن يجاهدوا الأنانية والطمع والتكبر. وبدلاً من أن يرعبوا أنفسهم بالخوف من نار الجحيم، عليهم أن يتأملوا آيات الله ويتدبروا كرمه فى حياتهم الطبيعية، ويتمثلوا إحسانه:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣][٢٠].

﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

الكون كله حجاب لصانعه، تعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر، والأمطار التى تجلب الحياة، وبديع خلق البشر، كل ذلك آيات من الخالق. إذا تأمل البشر تلك الآيات باستمرار وبأساليب معرفية، لوعوا أن وراءها حقيقة تتجاوز إدراكهم، ولامتلؤوا بالعرفان لنعم تلك الحقيقة عليهم.

كانت قريش تزدرى الضعيف، واعتقدت أن الفقر والفشل ينمان عن نقص متأصل فى النبالة، ولذلك لم تشعر قريش بأى واجب نحو الفقراء أو اليتامى أو الأرامل، ولكن إذا عرفوا حاجتهم لله فى كل لحظة فى حياتهم، لقدروا هشاشتهم، ولروعتهم

عجائب الله وهذبت كبرياءهم، ولتخلوا عن غطرسة استغنائهم بأنفسهم، وعن تكبرهم الرافض للركوع لأى بشر، وحتى للمقدس. أراد محمد (ﷺ) من كل رجل وامرأة وطفل فى مكة أن ينمى داخله تواضعًا وعرفانًا بنعم الله عليه، وبذلك يتميز الإنسان.

لم يكن محمد (ﷺ) ليكتفى بالعمل ظاهريًا فى سبيل برنامج اجتماعى، فقد اعتقد أنه بدون تغير ما فى النفس، لن يكون أى برنامج سياسى بحت إلا أمرًا سطحيًا. من أجل ذلك، علَّم مجموعة تابعيه الصغيرة العبادات التى تزرع فى أنفسهم ذلك التغيير. أولاً: عليهم أن يجتمعوا فى الصلاة، ويذكرهم السجود فى كل صلاة بوضعهم الطبيعى أمام إلههم. وفى دنياهم، تقطع الصلاة أعمالهم المعتادة، وتساعدهم على تذكر أن الله هو مطلبهم الأهم. كان من الصعب على الرجال والنساء الذين تربوا على تعاليم المروءة أن ينبطحوا على الأرض، كالعبيد، وانزعج كثير من القرشيين من هذا الوضع المذل. ولكن تلك الحركة الجسدية المكررة فى الصلاة ترمز للتسليم التام لله. إنها علمت أجسادهم بمستوى أعمق من العقلانى أن تنحى جانبًا الدوافع الشخصية للتفاخر والتبختر بغطرسة. أصبح المسلم، رجل أو امرأة، هو من يسجد بإذعان، ويفخر بأنه عبد الله.

ثانيًا: كان مطلوب من كل من أعضاء الأمة الإسلامية أن يعطى جزءًا من دخله صدقة للفقراء. طهرت هذه الزكاة الكرم البدوى التقليدى من الغرور والمظهرية، فبدلاً من عرض سخائهم الزائد، أصبح عليهم أن يقدموا إسهامًا منتظمًا، غير لافت للنظر ولا للشهرة لفقراء العشيرة. لم يعد الكريم هو من قد ينفق ثروته الكاملة فى ليلة واحدة، وصار الكريم هو من لا يكل من ممارسة أعمال الخير والعدالة. وكان الإيمان الجديد يسمى فى هذه المرحلة «تزكية الأنفس»[٢١] بالعطف على الفقير والمحتاج، وتحرير العبيد، وممارسة الأعمال الطيبة يوميًا، بل فى كل ساعة. تعلم المسلمون فضيلة التكافل، وتشربوا تدريجيًا روح رعاية الآخر امتثالاً لكرم ورعاية الله لهم، وطهروا قلوبهم من الكبر والأنانية، وزكوها بالنقاء والصفاء.

حافظ محمد (ﷺ) على سرية الدعوة لمدة ثلاث سنوات، فكان يدعو فقط أشخاصًا مختارين بعناية، ولكن أمره الله فى عام (٧ ق. هـ/ ٦١٥م) بما أرعبه: أن

يبلغ رسالته لجميع عشيرة بنى هاشم، فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤][٢٢].

أخبر محمد (ﷺ) عليًا بأن المهمة أكبر من طاقته، ولكنه تحملها، ودعا أربعين من كبار عشيرته إلى وجبة متواضعة، كان ذلك فى حد ذاته جزءًا من الرسالة، فليس بعد اليوم إسراف مظهرى فى الضيافة؛ لأن الترف ليس فقط إضاعة للمال، بل إنكارًا للجميل ونفيًا للعرفان، وتبذيرًا غير شاكر لنعم الله:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الإسراء: ٢٦، ٢٧][٢٣].

وعندما حضر كبار العشيرة، احتاروا عندما قدم لهم علىّ ساقًا من الضأن وكوبًا من اللبن. وروى علىّ القصة بعد ذلك بما يشبه ما فعله عيسى (ﷺ) عندما أطعم الألوف بضعة أرغفة، فقد أكل بنو هاشم حتى امتلؤوا بذلك الطعام البسيط. وبعد الانتهاء من الطعام، وقف محمد (ﷺ) ليخبرهم عن الوحى وتعاليم الإسلام، ولكن قاطعه أبو لهب ـ الأخ غير الشقيق لأبى طالب ـ بوقاحة قائلاً للجميع: لقد سحركم محمد. وانفض الاجتماع بطريقة غير سوية.

ودعاهم محمد (ﷺ) فى اليوم التالى، واستطاع أن يعرض عليهم ما أراده فى اليوم السابق، ثم ختم حديثه لهم قائلاً: يا أبناء عبد المطلب، لا أعرف أحدًا من العرب جاء لقومه برسالة أنبل مما جئتم به. لقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه، فمن منكم سوف يؤازرنى فى تبليغ الرسالة، كأخى، ومساعدى، وخليفتى؟.

صمت بنو هاشم، ونظر بعضم إلى بعض فى هرج، فهم ما زالوا يتذكرون محمدًا الصغير الذى يعيش على مساعدات أقربائه. كيف يجرؤ على أن يدعى أنه نبى الله؟. حتى ابن عمه جعفر، وابنه بالتبنى زيد لم يجرؤا على الكلام، وأخيرًا لم يستطع على الفتى المراهق الطائش ذو الثلاثة عشر عامًا أن يتحمل أكثر من ذلك، فصرخ قائلاً: يا نبى الله، سوف أكون مساعدك فى هذه الرسالة! فوضع محمد (ﷺ) يده برفق على عنق الفتى قائلاً: «هذا هو أخى، ومساعدى وخليفتى بينكم»، ثم قال: «اسمعوا له»، فانفجر الكبار ضاحكين: لقد أمرك أن تستمع لابنك وتطيعه! صرخوا فى وجه أبى طالب وهم يخرجون من المنزل.

قال الطبرى: قال رسول الله (ﷺ): «يا بنى عبد المطلب، والله ما أعلم شابًا فى العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، إنى جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟». قال على: فأحجم القوم عنها جميعًا وقلت ـ وإنى لأحدثهم سنًا وأرمصهم عينًا، وأخمشهم ساقًا ـ: أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتى فقال: «إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا». قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع. [تاريخ الطبرى: ٢/ ٢١٧][٢٤].

لم يثن ذلك الإذلال محمدًا (ﷺ) عن الاستمرار فى الجهر بدعوته فى المدينة، ولكن بنجاح شبه معدوم. لم ينتقد أحد دعوته الاجتماعية، فهم يعرفون أن المروءة تقتضى أن يشركوا فى أموالهم فقراء عشائرهم، فالأنانية والطمع أمر، ولكن الدفاع عنهما أمر مختلف. اعترض معظم الناس على مسألة يوم الحساب، وقالوا ببساطة ما هذا إلا خرافة، مثل حكايات عجائز النساء. كيف تحيا الأجساد التى تحللت وأصبحت عظامًا؟ وهل محمد (ﷺ) جاد فى قوله إن آباءهم المبجلين سوف يقومون من قبورهم «ليقفوا للحساب أمام رب العالمين»؟.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)﴾ [سورة والصافات: ١٢ ـ ١٩][٢٥].

﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)﴾ [سورة المطففين: ٤، ٥]،

يجيب القرآن بأنه لا يوجد من يستطيع إثبات أنه لن تكون هناك حياة بعد الموت، وإذا كان الله قد خلق الإنسان من نطفة، فيمكنه بسهولة إحياء جسد ميت:

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ

﴿تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ [سورة يس: ٧٧ ـ ٨٣]، ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾ [سورة الجاثية: ٢٦][٢٦].

ويشير القرآن إلى أن هؤلاء الذين يسخرون من البعث إنما هم من لا يريدون التوقف عن قمعهم للآخرين، وعن تصرفاتهم الأنانية. وعندما يواجههم القرآن بالإصرار على سؤالهم عن القيمة النهائية أو الجوهرية لحياتهم، يتهربون بالأفكار والاستخفاف من السؤال:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢)﴾ [سورة المطففين: ١٠ ـ ١٢][٢٧].

ولكن برغم جحد قريش لدعوة محمد (ﷺ)، فمعظمهم اقتنع بترك محمد (ﷺ) فى حاله، فقد كانوا رجال أعمال، شهيتهم ضعيفة للجدال الفكرى، وعرفوا أن صراعًا داخليًا خطيرًا سوف يضر تجارتهم. ورأوا أنه، على أى حال من الأحوال، تلك العصابة الصغيرة من حفنة العبيد، والشباب الغاضب، والتجار الفاشلين، لا تشكل تهديدًا حقيقيًا، وأن مصير حركتهم المحتوم هو التلاشى.

كان محمد (ﷺ) نفسه حريصًا على تفادى أى صدع فى قريش، ولم تكن لديه أى رغبة فى الإضرار بمكة «أم القرى». وعرف أن بعضًا من قريش توجس من أنه يريد أن يصبح ملكًا عليهم، وكانت الملكية فكرة بغيضة لدى العرب، نظروا إليها بعين الشك. ولكن لم يكن لدى محمد (ﷺ) طموحات سياسية، وأخبره الله فى القرآن بحسم أنه فقط نذير، يحذر قريشًا، ويخاطبهم بتواضع، ولا يستفزهم، ولا يهاجم آلهتهم، وعليه ألا يسعى للرئاسة عليهم، وذلك ما قد فعله الأنبياء العظام من قبل:

﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)﴾ [سورة الأنعام: ١٠٨][٢٨].

وأن يكون خيّرا، ومؤثرًا للغير، وألا يعتد برأيه، وألا يتتبع عورات الآخرين، وأن يضع الصالح العام للأمة فى المقدمة. فالنبى أولاً، وقبل كل شىء، هو «من أسلم وجهه لله»:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِن الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة يونس: ٧٢][٢٩].

لم يركز محمد (ﷺ) فى مرحلته الأولى على مضمون التوحيد فى دعوته لتجنب الخلاف مع قريش. مثل الأحناف، اعتقد محمد (ﷺ) بوحدانية الله، ولكنه لم يشجب فى البداية عبادة الأصنام حول الكعبة، أو الغرانيق الثلاثة. ومثل معظم الحكماء المتدينين العظام، لم يكن ذا اهتمام بالغ بالآراء العقائدية[٣٠]، فتأملات ما وراء الطبيعة [علم الكلام أو الفلسفة] تنزع إلى خلق البلبلة، إن لم يكن الشجار والانقسام بين الناس. كانت «ممارسة أعمال الخير والعدالة» أكثر أهمية من الإصرار على تحديد القناعات العقائدية، الأمر الذى قد يخرج الكثير ممن يريد محمد (ﷺ) كسبهم فى دعوته. ولكن كان التوتر يتفاقم، ففى عام (٦ ق. هـ/ ٦١٦م) هاجم بعض القرشيين المسلمين أثناء صلاتهم فى أحد الوديان الصغيرة المنعزلة خارج مكة. صدم الحدث الجميع فى مكة، وحاول الجانبان باستماتة التعايش بتسوية ما. قد يكون هذا ما قاد إلى «الآيات الشيطانية» ذات السمعة السيئة[٣١]. لم يرو تلك الحادثة سوى اثنين من مؤرخى السيرة النبوية الأوائل، ويرى أكثر العلماء أنها مشكوك فيها، برغم أنه يصعب أن نجد سببًا لأن يضع أحد مثل تلك الحادثة. أكد كل من ابن سعد والطبرى على رغبة محمد (ﷺ) على أن يسود الوفاق مكة: قال ابن سعد إنه بسبب رغبة محمد (ﷺ) فى ألا ينشق صدع بينه وبين قريش، جلس خاليًا فتمنى، فقال: «ليته لا ينزل على شىء يصدهم عنى».

قال ابن سعد: «رأى رسول الله (ﷺ) من قومه كفا عنه، فجلس خاليًا فتمنى فقال: ليته لا ينزل على شىء ينفرهم عنى». [الطبقات: ١/ ١٧٤][٣٢].

وقال الطبرى: «لما رأى رسول الله (ﷺ) تولى قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله، تمنى فى نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وكان يسره مع حبه قومه وحرصه عليهم، أن يلين له

بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم، حتى حدث بذلك نفسه، وتمناه وأحبه».
[تاريخ الطبرى، ط دار المعارف: ٢/ ٣٣٨][٣٣].

استأنف الطبرى روايته: وفى يوم من الأيام كان محمد (ﷺ) يجلس بجوار الكعبة مع بعض الكبار، يرتل سورة جديدة [سورة النجم]، أراد الله فيها أن يطمئن نقاد محمد (ﷺ): لم ينو محمد (ﷺ) أن يسبب كل هذا الإشكال، وأصر الوحى أن محمداً لم يخدع، ولم يمسه جنى، وإنما جاءته رؤية حقيقية من الوحى المقدس، وهو ببساطة يخبر قومه بما رأى وسمع.
﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾[٣٤].

ولكن ذهل محمد (ﷺ) عندما وجد نفسه يتلفظ ببعض آيات عن الغرانيق الثلاثة «بنات الله»: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ وهنا وقفت قريش تصغى بانتباه، فقد أحبت قريش الآلهة التى تتوسط بينها وبين الله، فأكمل محمد (ﷺ) تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى(*).

يزعم الطبرى أن الشيطان ألقى بتلك الكلمات على لسان محمد (ﷺ). هذه فكرة إنذارية شديدة للمسيحيين الذين يعتبرون الشيطان كائنًا ذا شر هائل. يعرف القرآن، على وجه التأكيد، قصة الملاك الخاطئ الذى تحدى الله، ويسميه إبليس (من الكلمة الإغريقية diabolos، أى شيطان)(**). ولكن الشيطان الذى ألقى بتلك الكلمات التى تطرى آلهة قريش على لسان محمد (ﷺ) كان قليل الخطورة. الشياطين هم ببساطة نوع من الجن، يغوون البشر بمخاطبة طموحاتهم السطحية والفارغة لينحرفوا عن الصراط المستقيم. الشياطين مثل كل الجن، موجودة فى كل مكان، ضارة وخطيرة، لكن ليس على مستوى إبليس. وكان محمد (ﷺ) يتطلع إلى سلام مع قريش، وكان يعرف مدى تعلقهم بآلهتهم [الغرانيق]، وربما كان قد فكر فى أنه إذا استطاع أن يدمج الغرانيق فى دينه، فقد ينظرون بعين أكثر عطفًا على رسالته. وعندما قرأ تلك الآيات الشاذة، كانت رغبته الداخلية تتكلم، وليس كلام الله، وتبين أن تصديق شفاعة الغرانيق كان خطأ. وعزا محمد (ﷺ) ذلك، مثل كل العرب، إلى الشيطان.

(*) فَنَّد علماء الحديث تلك الرواية الموضوعة، ومع هذا لا يكاد يخلو كتاب لمستشرق عن سيرة النبى ﷺ عن ذكرها، وانظر هامش صفحة ٦٥ ماذا يقول القرآن عن محمد ﷺ لو أضاف شيئًا من عنده.
(**) فعل أبلس معناه: سكت لحيرة أو انقطاع حجة، وفى التنزيل العزيز: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ [سورة الروم: ١٢].

لم يعن محمد (ﷺ) أن «الغرانيق الثلاثة» ترقى إلى مستوى الله، ولكنها كانت، ببساطة، وسيطات، مثل الملائكة التى صدقت السورة على وساطتها:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى السَّمَوَاتِ لا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة النجم: ٢٦][٣٥].

دائمًا ما رأى اليهود والمسيحيون مثل تلك الوساطة متوافقة مع توحيدهم. بدت الآيات الجديدة إيماءات ملائمة، ونزل تأثيرها على قريش كالصاعقة، وما إن تلى محمد (ﷺ) ترتيله حتى سجد(*)، ولعجبه، فقد سجد كبار قريش، واضعين جباههم على الأرض بتواضع.

انتشر الخبر فى مكة انتشار النار فى الهشيم: «لقد تكلم عن آلهتنا بطريقة رائعة! لقد زعم أن شفاعتهن ترتجى».

قال الطبرى: «وخرجت قريش، وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم، ويقولون: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، قد زعم فيما يتلو: «أنها الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن ترتجى» [تاريخ الطبرى: ٢/ ٣٣٨][٣٦].

قال ابن سعد: «قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، وأما إذا جعلت لها نصيبا فنحن معك. فكبر ذلك على رسول الله» [الطبقات: ١ / ١٧٠][٣٧].

ولكن احتار محمد (ﷺ)، فهل قريش جادة فى تعديل طريقة حياتها، فتشرك الفقراء فى ثرواتها، وترضى بأن يصبح القرشيون «عبيدًا» لله؟. لم يبد ذلك محتملاً. لقد كان أيضًا منزعجًا من كلمات كبار قريش المهللة، فهو بكل تأكيد لم يقصد أن يشير لأن الغرانيق «شركاء لله». وبينما كان الجميع يحتفلون، ذهب محمد (ﷺ) إلى منزله ليعتزل الناس ويتدبر. فى تلك الليلة، جاءه جبريل: «ماذا فعلت يا محمد؟ لقد رتلت على هؤلاء الناس ما لم أوح لك به، وقلت ما لم يقله الله لك!»:

قال الطبرى: «وأتى جبريل رسول الله (ﷺ) فقال يا محمد، ماذا صنعت! لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل، وقلت ما لم يقل لك. فحزن

(*) تنتهى سورة النجم بالآية الآتية: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾.

رسول الله (ﷺ) عند ذلك حزنًا شديدًا، وخاف من الله خوفًا كبيرًا، فأنزل الله عز وجل ـ وكان به رحيمًا ـ يعزيه ويخفف عليه الأمر، ويخبره أنه لم يك قبله نبى ولا رسول تمنى كما تمنى ولا أحب كما أحب، إلا والشيطان قد ألقى فى أمنيته، كما ألقى على لسانه (ﷺ). فنسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، أى فإنما أنت كبعض الأنبياء والرسل. فأنزل الله ـ عز وجل ـ من سورة الحج الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [تاريخ الطبرى: ٢/ ٣٣٩](٣٨).

شوهت رغبة محمد (ﷺ) فى حل وسط الرسالة الإلهية، وذهبت نفس محمد (ﷺ) من الألم، ولكن سرعان ما عزاه الله بتزيل جديد. كل الأنبياء السابقين زلوا فى أخطاء «شيطانية» مماثلة. كان هناك دائمًا صراع لجعل التنزيل جديرًا بالإقناع، وما كان أسهل الوقوع فى خلط فيض الإلهام مع الأفكار السطحية للموحى إليهم(*). واستمر التنزيل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الحج: ٥٢].

وهنا تأسس مفهوم مهم. يمكن لله أن يغير وحيه فى وقت التنزيل لنبى معين، حيث كان الوحى متتابعًا: ويمكننا أن نقول بأن محمدًا (ﷺ) رأى فى بعض الأحيان ضمنيات جديدة فى رسالته، توافق بعضًا من رؤاه المبكرة.

كان على محمد (ﷺ) الآن، أن يذهب إلى قريش بآيات جديدة تُعَدِّل تلك «الشيطانية». سألهم الله مرة أخرى:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا

(*) جاء فى سورة الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة النجم: ١٩ ـ ٢٣][٤٠].

لقد كان ذلك بمثابة صفعة على وجه قريش! لم تكتف بنفى شراكة الغرانيق فى الألوهية، بل أهانت السلف المبجل. لماذا يستحيل على القرآن ضم تلك الغرانيق إلى صف الملائكة؟ لماذا يحطم القرآن فرصة السلام مع قريش بذلك الرفض الحاسم لإخلاص قريش ـ الذى يبدو غير ضار ـ لآلهتها؟.

بعد أربع سنوات من الإسلام، لم يعد المسلمون يستطيعون أخذ ديانة قريش التقليدية بجدية. وما زال الله فى نظر معظم القرشيين إلهًا بعيدًا عاليًا، لا يتدخل فى حياتهم اليومية، أما المسلمون منهم فلم يروا ذلك، فقد جعل جمال القرآن الله حقيقة آسرة نابضة بالحياة، فعندما يسمعون القرآن:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الزمر: ٢٣][٤١].

وكلمة الله هى حقيقة نافذة يتصدع لها الكون من الخشوع ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة الحشر: ٢١][٤٢]. أصبح الله الآن مختلفًا تمامًا عن آلهة قريش، وأخطأت «الآيات الشيطانية» عندما اقترحت أن الإسلام يماثل الديانة المكية القديمة. إنه لأمر جدير بالسخرية أن يتصور أحد أن الأوثان الحجرية للغرانيق قد تؤثر على إله الإسلام.

بدأ القرآن فى توضيح الفارق، فالآلهة الأخرى عاجزة وغير فعالة مثل رؤساء القبائل الضعفاء، فهى لا تستطيع توفير الطعام لعبدتها، كما يفعل الله حين يرزق كل من على الأرض، وهى لا تستطيع التشفع لعبدتها يوم الحساب، فالله ليس كمثله شىء:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾، [سورة يونس: ١٨]، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿١٧﴾﴾ [سورة العنكبوت: ١٧]، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الزمر: ٤٣][٤٣].

بعد التبرؤ من «الآيات الشيطانية» بمدة قصيرة، نزلت سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[٤٤].

أصبح التوحيد هو الركيزة الأساسية فى الإسلام الروحى. لم يكن التوحيد مجرد تأكيد غيبى لما فوق الطبيعة عن وحدانية المقدس، وإنما هو ـ مثل كل تعاليم القرآن ـ دعوة للعمل. ولأنه لا يمكن مقارنة الله، فالمسلمون ليسوا مطالبين فقط بعدم تبجيل الأوثان، بل عليهم أيضًا أن يضمنوا ألا تنحرف بهم أى حقائق أخرى عن الله، أما الثروة، والبلد، والعائلة، والرفاهية المادية، حتى المثاليات النبيلة مثل الحب والوطنية، فتحتل المركز الثانى؛ لأن التوحيد يتطلب من المسلمين أن تتكامل حياتهم. وفى كفاح المسلم لكى يصبح الله أهم ما فى حياته، سوف تنكشف للنفس السوية وحدانية الله. ربما فى تلك الفترة كان على المسلمين الجدد النطق بالشهادة: أشهد أن لا إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

لم تكن قريش لتصدم بالتوحيد فى حد ذاته، فهو لم يكن فكرة جديدة بالنسبة لهم. فلقد وجدوا منذ زمن طويل أن اليهودية والمسيحية تتوافقان مع تقاليدهم، ولم ينزعجوا، بشكل خاص، من محاولة الحنيفيين خلق توحيد عربى أصيل. ولكن محمدًا (ﷺ) كان يفعل شيئًا مختلفًا، فقد بقى معظم الحنيفيين على احترامهم العميق للحرم، ولم يبذلوا أى محاولات لإصلاح النظام الاجتماعى. ولكن مهاجمة محمد (ﷺ) لأصنام الكعبة، عنت أن الحرم الذى يقوم عليه الاقتصاد المكى عديم القيمة. فقبائل البدو لم تكن تأتى للحج إلا من أجل عبادة أصنامها، تلك العبادة التى أدانها القرآن إدانة مطلقة[٤٥]. وكانت قريش تتوسل إلى «غرانيقها العلى» وهى تطوف بالكعبة، وأصبح ذلك الآن، وفقًا للقرآن، ضلالاً وخداعًا للنفس.

كانت واحة الطائف التى تعبد اللات، تمد مكة بالطعام، وكان لكثير من أثرياء مكة بيوت صيفية فى الطائف، فكيف تبقى الطائف على صداقتها مع مكة إذا تغاضت الأخيرة عن سب آلهتها؟.

أصبح محمد (ﷺ) بين عشية وضحاها «العدو». وقد أرسل زعماء قريش وفداً إلى أبى طالب يسألونه التبرؤ من ابن أخيه، حيث لم يكن أحد يستطيع البقاء حيّا فى الجزيرة العربية بدون حام يجيره، ومن تتبرأ منه قبيلته يصبح مباح الدم، دون خوف من انتقام أحد. ولم يكن أبو طالب مسلمًا، ولكنه كان يحب محمداً (ﷺ)، وأصبح فى موقف بالغ الصعوبة. أراد أبو طالب التوفيق، ولكن جاءه إنذار نهائى من قريش «لن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه تقاليدنا وإهانة آلهتنا»، ثم هددوه قائلين: «إن لم تخلصنا منه، سوف نحاربكم حتى نهلك أو تهلكوا». نادى أبو طالب محمداً (ﷺ) وتوسل إليه أن يتوقف عن وعظه المدمر: «أبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق، فظن محمد الله (ﷺ) أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته، والقيام معه، فقال: «يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته». ثم بكى، فلما ولى، ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا بن أخى، قل ما أحببت، فوالله لا أسلمك أبداً».

> قال ابن إسحاق: يا بن أخى، إن قومك قد جاءونى فقالوا: كذا وكذا، للذى قالوا له، وآذونى قبل، فأبق على وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، واكفف عن قومك ما يكرهون من قولك هذا الذى فرق بينا وبينهم، فظن رسول الله (ﷺ) أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله (ﷺ): «يا عم! لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه»، ثم استعبر رسول الله (ﷺ) فبكى، فلما ولى قال له ـ حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله (ﷺ): أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه، فقال: امض على أمرك وافعل ما أحببت، فوالله لا نسلمك بشىء أبداً. [السيرة النبوية: ص ٢٠١][٤٦].

بقى محمد (ﷺ) سالمًا، طالما أسبغ عليه أبو طالب حمايته، فلا يجرؤ أحد على مسه.

كان أبو طالب شاعراً موهوبًا، عرف كيف ينظم أبياتًا عاطفية فى تلك العشائر التى تخلت عن بنى هاشم فى وقت الحاجة. استجاب بنو عبد المطلب بإعلان تضامنهم، ولكن شاب ذلك انشقاق أبى لهب، الأخ غير الشقيق لأبى طالب، الذى عارض محمداً (ﷺ) منذ بدء الأمر، وكان قد خطب ابنتى محمد (ﷺ) رقية وأم كلثوم

إلى ابنيه، فأمر ابنيه بفسخ العلاقة. وهنا تقدم الشاب المسلم الجميل، والثرى ذو الحسب والنسب، عثمان بن عفان ليخطب رقية، إحدى أجمل فتيات مكة.

تفاقمت كراهية كبار قريش لمحمد (ﷺ)، خاصة أولئك الذين فقدوا أعضاء من عائلاتهم دخلوا الإسلام، وكانوا يتباهون بأنهم يعطونه ظهورهم عندما يسمعونه يتكلم عن «الإله الواحد»، فى الوقت الذى يبتهجون عند سماع سيرة الآلهة الأخرى:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الإسراء: ٤٦]، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الزمر: ٤٥][٤٧].

لقد طالبوا الجميع بأن يتمسكوا بما ورثوه من تقاليد آبائهم، فهذا هو الأمر السوى الوحيد، وكل ما يقوله محمد (ﷺ) عن الوحى ما هو إلا خيال! لقد ابتدع محمد (ﷺ) كل ذلك، وإن نزل وحى من السماء، فلماذا ينزل على محمد (ﷺ) بالذات من دون كبراء وأثرياء قريش؟.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [سورة ص: ٦][٤٨].

وقالوا عن محمد (ﷺ) تارة إنه مجنون، وتارة إن جنًا قد مسه، وما هو إلا مشعوذ يخدع شباب مكة الصغير، فيضلهم عن دين آبائهم بسحره:

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [سورة ص: ٥][٤٩].

وعندما كان يطالبه الناس بتصديق رسالته بأن يأتى بمعجزة ـ مثلما فعل موسى وعيسى ـ كان يعترف لهم بأنه مجرد بشر مثلهم:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [سورة فصلت: ٦][٥٠].

كان من بين من اعترضوا على محمد (ﷺ) بعض من أكبر زعماء مكة، فى مقدمتهم أبو الحكم بن هشام، وهو رجل طموح سريع الغضب، أزعجه الإسلام بشدة بالغة، وأمية بن خلف البدين، وأبو سفيان الشديد الذكاء ـ والذى كان صديقًا شخصيًا

لمحمد (ﷺ) ـ مع حميه عتبة بن ربيعة، وأخيه. وكان محمد (ﷺ) يطمع فى أن يكسب سهيل بن عمرو، كبير عشيرة عامر، والذى كان يعتزل ـ مثل محمد (ﷺ) ـ فى جبل حراء. كذلك أسفر بعض رجال مكة المتميزين عن عدائهم القاسى للإسلام، منهم المحاربان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وكان أكثرهم عداء عمر بن الخطاب، ابن أخت أبى الحكم، وأكثرهم إخلاصًا لدين الآباء. وبينما كان كبار مكة يتحينون بحذر الفرصة ضد محمد (ﷺ)، كان عمر مستعدًا لأساليب أكثر تطرفًا.

أصبح محمد (ﷺ) فاقد الأمل فى تغيير المؤسسة المكية، وأدرك أن عليه التركيز على الفقراء الأقل إخلاصًا للنظام المكى السائد، والذين كانوا يتطلعون إلى رسالة. مَثَّل ذلك نقطة تحول هامة، سجلها القرآن بأسلوب حاد.

كان محمد (ﷺ) منشغلاً تمامًا فى محاولة إقناع أحد كبراء مكة، عندما جاءه ذات يوم أعمى يسأله عن الإسلام، فأعرض عنه محمد (ﷺ) عابسًا ليتم حديثه مع الآخر، فنزل القرآن يؤنب محمدًا (ﷺ) فى سورة عبس:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [سورة عبس: ١ ـ ١٠][٥١].

أنب القرآن محمدًا (ﷺ) بشدة؛ لأنه على النبى أن يسعى وراء كل أعضاء المجتمع بنفس درجة الاهتمام والاحترام، فالقرآن نزل للجميع على السواء، وكان على محمد (ﷺ) ألا ينزلق فى عيوب مروءة قريش، فيعبس ويتولى، ويحجب نعمة الله عليه عن الأعمى.

عادة ما تتم ترجمة كلمة كافر إلى «عديم الاعتقاد»، ولكن تلك ترجمة مضللة[٥٢]. لم يكن محمد (ﷺ) فى صراع مع كل معتقدات أبى الحكم وأبى سفيان، وفى الحقيقة، كان الكثير من معتقداتهم صحيحة، منها على سبيل المثال، أنهما كان يعتقدان ـ بلا شك ـ أن الله هو خالق العالم، وهو رب الكعبة:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ [سورة العنكبوت: ٦١] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾ [سورة العنكبوت: ٦٣][٥٣].

المشكلة أنهم لم يكونوا يترجمون معتقداتهم إلى أفعال. لقد كانوا يجحدون المعانى الحقيقية لآيات الله الخيرية فى خلقه، والتى تطلب من البشر تقليدها فى كل تعاملاتهم. فعلى البشر بدلاً من الاستخفاف بالضعفاء وظلمهم، أن يخفضوا لهم جناح الرحمة والإحسان:

﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة النحل: ٧١]، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾ [سورة الشعراء: ٢١٥][٥٤].

كلمة «كافر» مشتقة من «كفر» والتى تعنى أن المرء رفض بفظاظة ما قدم له بكل كرم وطيبة، فعندما كشف الله لأهل مكة عن ذاته، رفضه بعضهم بإزدراء ووقاحة(*). لا يوبخ القرآن الكافرين على اعتقادهم، بقدر ما يوبخهم على تكبرهم[٥٥]. كانوا متغطرسين ومتكبرين، تصوروا أنهم من طبقة أعلى من فقراء ومساكين مكة الذين يستحقون الاحتقار. وبدلاً من إدراك اعتمادهم النهائى على الله، ظلوا فى اعتبار أنفسهم مستغنين عنه، ورفضوا الانحناء له، أو لأى شخص آخر. يشعر الكافرون بتضخم شخصياتهم، وينتفخون من الزهو بذواتهم، ويعاملون الآخرين باستعلاء، وسرعان ما يغضبون بعنف أحمق عندما يظنون أنهم طعنوا فى شرفهم؛ لأن لديهم قناعة كبيرة بأن طريقة حياتهم أفضل من أى قوم آخرين، ويسخطهم أى نقد لتقاليدهم:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦)﴾ [سورة الأعراف: ٧٥، ٧٦]، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧)﴾ [سورة المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٧]، ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ

(*) كفر تعنى فى العربية غطى، وتعنى فى المصطلح القرآنى من عرف حقيقة الدين ثم غطاها بجحود وإنكار.

عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [سورة لقمان: ١٧، ١٨]، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة ص: ٧١ ـ ٧٥]. ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الزمر: ٥٩][٥٦].

وكانوا ينخرون بخياشيمهم عند تلاوة محمد (ﷺ) للقرآن، ليبلبلوا الناس، معتقدين أن تلك حيلة لإظهار ذكائهم فى صرف الناس عن محمد (ﷺ):

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الحجر: ٩٤ ـ ٩٦]، ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة الكهف: ١٠٦]، ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٣٦]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحج: ٨، ٩]، ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [سورة غافر: ٤، ٥][٥٧].

ولم يكن يسعهم أن يفكروا فى أى جديد يخالف مواريثهم؛ لأن قلوبهم كانت غلفًا، مختومًا عليها ومغلقة، وصدأة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [سورة البقرة: ٦، ٧]، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [سورة فصلت: ٣ ـ ٥]، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة المطففين: ١٤][٥٨].

كانت الجاهلية داء الكافرين العضال. يستخدم المسلمون ذلك المصطلح بمعنى الفترة السابقة للإسلام فى الجزيرة العربية، ويطلقون عليها ـ بطريقة تقليدية ـ فترة الجاهلية. ومع أن جذر الكلمة «جهل» بمعنى عدم العلم، فمعناها الرئيسى هو العنف المزمن فى الاعتداء على الآخرين، والانتقام منهم نتيجة الغضب السريع والحساسية الزائدة للشرف والمكانة[٥٩](*). كان أهل الجاهلية أكثر تكبرًا من أن يستسلموا، ويسلموا أنفسهم للشرع الجديد: الإسلام. لماذا يجب على الكريم أن يهذب أسلوبه، ويتصرف مثل العبيد، فيصلى وأنفه فى الأرض، ويعامل الطبقة الدنيا كأنداد؟. أطلق المسلمون على أبى الحكم، عدوهم الرئيسى «أبا جهل»، ليس لأنه جهل الإسلام ـ فقد فهمه جيدًا ـ ولكن لأنه حاربه بغطرسة وبشراسة وبانفعال أعمى وطائش.

ولكن روح القبيلة كانت قد تملكت العرب، حتى أنه بعد دخولهم الإسلام، ظلت خطرًا كامنًا تتحين أعراضه الظهور فى التاريخ الإسلامى.

حث القرآن المسلمين على أن يتحلوا بالحلم، وهو أيضًا فضيلة عربية تقليدية، بدلاً من الجاهلية، فيتصرف المسلمون بصبر وأناة ورحمة[٦٠]. يجدر بهم السيطرة على غضبهم وأن يحافظوا على هدوئهم ورصانتهم فى أشد الظروف صعوبة بدلاً من أن يسارعوا بالانتقام والاعتداء، ويتركوا ذلك لله[٦١]. والحلم يدعو إلى الأعمال الإيجابية، مثل سد حاجة الضعيف وقليل الحظ، وتحرير العبيد، وللتناصح بأعمال الخير والرحمة، وإيثار الغير من المعوزين. يجب على المسلمين دائمًا التصرف برفق وطيبة، فهم مسالمون:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البلد: ١٣ ـ ١٧][٦٢].

(*) كذلك تعنى جهل: ظلم، وتعدى، وعكس معنى حَلِم.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الفرقان: ٦٣][٦٣].

بعد قضية «الآيات الشيطانية»، أصبح الصراع مع الكافرين خطيراً، حيث داوم أبو جهل على الاعتداء اللفظى على المسلمين وتشويه سمعتهم بالأكاذيب والإشاعات الشريرة، وبتهديد التجار بإفشال أعمالهم، وببساطة، ضرب المسلمين الضعفاء. لم يستطع الكافرون إيذاء المسلمين الذين لديهم من يحميهم، ولكن هاجموا العبيد، وأولئك الذين بدون حماية قبلية كافية. وقد اعتاد أمية، كبيرجمح، تعذيب بلال العبد الحبشى، بأن يجعله يفترش أرض الصحراء القاحلة تحت الشمس الحارقة، ويضع فوق صدره صخرة كبيرة حتى يكفر بمحمد (ﷺ) وإلهه. اشترى أبو بكر بلالاً من أمية، وأعتقه، كذلك اشترى أمة كان عمر بن الخطاب يجلدها بالسوط. وحبست بعض العائلات شبابها الذى أسلم، بل وأجاعته حتى يرجع عن الإسلام. لقد أصبح الوضع خطيراً بالنسبة للمسلمين فى مكة، حتى أن محمداً (ﷺ) أرسل ضعافهم إلى الحبشة، حيث قبلهم ملكها المسيحى. كذلك أصبح من الواضح، بقدر ما هو من المؤلم، أنه لا مستقبل للإسلام فى مكة.

لابد وأنه كان أمراً بالغ الصعوبة على المسلمين، الذين نشؤوا بروح الجاهلية، أن يمارسوا الحلم، ويديروا خدهم الآخر، حتى محمد (ﷺ) كان يجاهد فى بعض الأحيان ليتمالك نفسه. تعبر إحدى سور القرآن الأوَل عن غضبه من عمه أبى لهب وزوجته، التى اعتادت نثر الأشواك أمام منزله:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة المسد: ١ـ٥][٦٤].

وهذه هى المرة الوحيدة التى ذكر فيها القرآن أحد أعداء محمد (ﷺ) بالاسم.

كان محمد (ﷺ) ذات مرة يطوف حول الكعبة، فسمع بعض كبار قريش يسخرون منه بإزدراء شديد. فاستطاع أن يكبح جماح نفسه لفترة، حتى أكمل الطواف الثالث، فامتقع لون وجهه، وواجه الكافرين، وبدلاً من أن يرجو لهم السلام كما يأمر

القرآن(*)، قال متجهمًا: «هل تسمعونني يا قريش، والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بالذبح!» لفظ كلماته الأخيرة بنبرة تهديدية جعلت زعماء قريش يصمتون. ولكن فى اليوم التالى، استعادوا أعصابهم، فأحاطوا بمحمد (ﷺ) عند وصوله الحرم وأمسكوا بخناقه يجذبونه من ملابسه، ولم يرد عليهم محمد (ﷺ) بعنف، بل تركهم فى غلظتهم حتى تدخل أبو بكر قائلاً وهويبكى: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟!».

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: طلع رسول الله (ﷺ) فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول، قال: فعرفت ذلك فى وجه رسول الله (ﷺ) فمضى، فلما مربهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك فى وجهه، ثم مر الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف، ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح»، قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، وحتى أن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن مايجد من القول، حتى أنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً، قال: فانصرف رسول الله (ﷺ) حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم فى ذلك طلع رسول الله (ﷺ) فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون أنت الذى يقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله (ﷺ): نعم، أنا الذى أقول ذلك، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، قال: فقام أبو بكر الصديق دونه وهو يبكى، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟! ثم انصرفوا عنه،

---

(*) جاء فى إنجيل لوقا عن المسيح قوله: «جئت لألقى على الأرض نارًا، فلكم أود أن تكون قد اشتعلت. ولكن لى معمودية على أن أتعمد بها، وكم أنا متضايق حتى تتم! أتظنون أنى جئت لأرسى السلام على الأرض؟ أقول لكم: لا، بل بالأحرى الانقسام: فإنه منذ الآن يكون فى البيت الواحد خمسة فينقسمون: ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة ـ فالأب ينقسم على ابنه، والابن على أبيه، والأم على بنتها، والبنت على أمها، والحماة على كنتها، والكنة على حماتها». [إنجيل لوقا: ١٢: ٤٩ ـ ٥٣].
وجاء فى إنجيل متى «لا تظنوا أنى جئت لأرسى سلامًا على الأرض، ما جئت لأرسى سلامًا، بل سيفًا. فإنى جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها، والكنة مع حماتها. وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته. من أحب أباه أو أمه أكثر منى، فلا يستحقنى. ومن أحب ابنه أو ابنته أكثر منى فلا يستحقنى». [إنجيل متى: ١٠: ٣٤ ـ ٣٧].

فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط. [السيرة النبوية: ص ٢١٨][٦٥].

ولكن يمكن لهذا النوع من التصرف أن يثمر فى بعض الأحيان. ففى أحد الأيام، جاء أبو جهل إلى محمد (ﷺ) قريبا من باب الصفا، وكاد يُجن عندما رآه مستحوذًا على تلك البقعة، ووجه إليه إهانات بذيئة، استمع إليها محمد (ﷺ) وهو صامت، حتى أنهى أبو جهل تقريعه، وذهب لينضم إلى كبار القوم فى الحرم، بينما رجع محمد (ﷺ) حزينًا صامتًا إلى منزله. ولكن فى ذلك المساء، رجع حمزة بعد رحلة صيد خارج مكة، وعرف بما حدث لابن أخيه، فذهب يبحث عن أبى جهل وهو مشحون غضبًا، فلما وجده شجه بقوسه قائلاً: هل تسبنى كما سببت محمدًا؟ فأنا على دينه، رد على ضربى لك إن استطعت!.

فما كان من أبى جهل، الذى يعرف جيدًا قوة حمزة الأسطورية بين أهل مكة، إلا أن اعترف أنه أهان محمدًا (ﷺ) بفحش:

> قال ابن إسحاق: إن أبا جهل اعترض رسول الله (ﷺ) عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف له، فلم يكلمه رسول الله (ﷺ)، ومولاة لعبد الله بن جدعان التيمى فى مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك، ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد لقريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحًا قوسه، راجعا من قنص له، وكان إذا فعل ذلك لا يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى فى قريش وأشدها شكيمة، وكان يومئذ مشركًا على دين قومه، فلما مر بالمولاة وقد قام رسول الله (ﷺ) فرجع إلى بيته، فقالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقى ابن أخيك من أبى الحكم آنفًا، وجده هاهنا فآذاه وشتمه وبلغ منه مايكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله ـ عز وجل ـ به من كرامته، فخرج سريعًا لا يقف على أحد كما كان يصنع يريد الطواف بالبيت، معدًا لأبى جهل أن يقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا فى القوم، فأقبل نحوه حتى قام على رأسه، رفع القوس وضربه بها ضربة شجه به شجة منكرة، وقام رجال من قريش من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه، فقالوا: ما تراك يا حمزة إلا قد صبأت؟ فقال حمزة: وما يمنعنى منه وقد استبان لى منه ذلك، وأنا أشهد أنه رسول الله، وأن

الذى يقول حق، فوالله لا أنزع، فامنعونى إن كنتم صادقين. فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنى والله لقد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا. [السيرة النبوية: ص ٢١٩][٦٦].

أصبح حمزة مسلمًا مخلصًا، وإن لم يكن إسلامه جاء بالطريقة التى كان يتمناها محمد (ﷺ)، وقبل نهاية عام (٦ ق. هـ/ ٦١٦م)، فاجأت شخصية أخرى مكة بدخولها الإسلام: عمر بن الخطاب!

قرر عمر بن الخطاب أنه حان الوقت لقتل محمد (ﷺ)، فهرول فى طرقات مكة شاهرًا سيفه إلى دار الأرقم فى سفح جبل الصفا، حيث عرف أن محمدًا (ﷺ) هناك، لم يكن عمر يعرف أن أخته فاطمة وزوجها أصبحا مسلمين سرًا، وقد دعيا أحد قارئى القرآن ليعلمهما فى دارهما آخر ما نزل على محمد (ﷺ). ولكن فى طريق عمر لدار الأرقم، اعترضه أحد المسلمين قائلاً بعد أن عرف نيته فى قتل محمد (ﷺ): أو ترى بنى هاشم تاركوك إن قتلت محمدًا (ﷺ)؟ ولماذا لا تذهب إلى بيت أختك أولاً؟. وكان ذلك خوفًا منه على حياة محمد (ﷺ):

قال ابن إسحاق: وكان إسلام عمر فيما بلغنى أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن نفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام، رجلاً من قومه، من بنى عدى بن كعب قد أسلم، وكان أيضًا يستخفى بإسلامه فرقًا من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله (ﷺ) ورهطًا من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله (ﷺ) عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق، وعلى بن أبى طالب، فى رجال من المسلمين ﷺ، ممن كان أقام مع رسول الله (ﷺ) بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدًا هذا الصابئ، الذى فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأى أهل بيتى؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما،

وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما؛ قال: فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة، فيها: ﴿طه﴾ يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خباب فى مخدع لهم، أو فى بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التى سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئًا؛ قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد؛ فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى وقال لأخته: أعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفًا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد، وكان عمر كاتبًا، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافى، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت فى إسلامه، فقالت له: يا أخى، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: ﴿طه﴾. فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب»، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو فى بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله (ﷺ) وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله (ﷺ)، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا السيف، فرجع إلى رسول الله (ﷺ) وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله (ﷺ): «ائذن له» فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله (ﷺ) حتى لقيه فى الحجرة، فأخذ حجزته، أو بمجمع ردائه، ثم جبذه [به] جبذة شديدة، وقال: «ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة»، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فكبر رسول الله (ﷺ) تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله (ﷺ) أن عمر قد أسلم [السيرة النبوية: ص ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣][٦٧].

ويروى ابن إسحاق قصة أخرى لإسلام عمر، أقل إثارة من السابقة، فيقول: إن عمر اتفق مع بعض أصدقائه على اللقاء فى أحد الأمسيات للشرب، ولكن عندما أخلف أصدقاؤه موعده، قرر الطواف بالكعبة، التى لم يكن بها أحد سوى محمد (ﷺ) يرتل القرآن بصوت خفيض:

قال ابن إسحاق: وحدثنى عبد الله بن أبى نجيح المكى، عن أصحابه: عطاء، ومجاهد، أو عمن روى ذلك: أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعدًا، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية، أحبها وأسرُّ بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة، عند دور آل عمر ابن عبد بن عمران المخزومى، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك فى مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحدًا. قال: فقلت: لو أنى جئت فلانًا الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلى أجد عنده خمرًا فأشرب منها. قال: فخرجت فجئته فلم أجده. قال: فقلت: فلو أنى جئت الكعبة فطفت بها سبعًا أو سبعين. قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله (ﷺ) قائم يصلى، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليمانى. قال: فقلت حين رأيته، والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! قال فقلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأروعنه، فجئت من قبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشى رويدًا، ورسول الله (ﷺ) قائم يصلى يقرأ القرآن، حتى قمت فى قبلته مستقبله، ما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن رق له قلبى، فبكيت ودخلنى الإسلام، فلم أزل قائمًا فى مكانى ذلك، حتى قضى رسول الله (ﷺ) صلاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حسين، وكانت طريقه، حتى يجزع المسعى، ثم يسلك بين دار عباس بن المطلب، وبين دار ابن أزهر بن عبد عوف الزهرى، ثم على دار الأخنس بن شريق، حتى يدخل بيته. وكان مسكنه (ﷺ) فى الدار الرقطاء، التى كانت بيدى معاوية بن أبى سفيان. قال عمر رضي الله عنه: فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركته، فلما سمع رسول الله (ﷺ) عرفنى، فظن رسول الله (ﷺ) أنى إنما تبعته لأوذيه فنهمنى [زجرنى]، ثم قال: ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة؟ قال:

قلت: [جئت] لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحمد الله رسول الله (ﷺ)، ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدرى، ودعا لى بالثبات. [السيرة النبوية: ص ٢٥٤][٦٨].

فرض أبو جهل حصارًا على بنى هاشم وبنى المطلب، فلا أحد يتاجر معهم ولا يناكحهم، حتى الطعام، لم يعد مسموحًا ببيعه لهم. دخل كل بنى هاشم وبنى المطلب، المسلمين وغيرهم، فى شعب أبى طالب الذى أصبح بمثابة معتقل جماعى أو جيتو. عندما دخلت أسرة محمد (ﷺ) الشعب، تحرك أبو لهب وأخذ مسكنًا فى منطقة عبد شمس. لم يكن الهدف من الحصار قتل العشيرتين جوعًا، ولكن جعلهم يحسون بوطأة الخروج عن التقاليد القبلية. فإذا كان محمد (ﷺ) يريد الانسحاب من الحياة الدينية لمكة، فلا يجوز له أن يستفيد من اقتصادها[٦٩].

انهار الحصار الاقتصادى بعد ثلاث سنوات، وكان كريهًا لكل من كان له أقارب وأنسباء فى بنى هاشم وبنى المطلب، فلم يكن يرتاح ضميره لأن يتركهم يتضورون جوعًا. ومسلمون مثل أبى بكر وعمر، من الذين لم تكن عشائرهم تحت الحصار أرسلوا المؤن التى استطاعوا تدبيرها من حين لآخر، وعندما كان المكيون يفعلون ذلك، كانوا يفعلونه سرًا، فيرسلون الجمال المحملة إلى شعب أبى طالب فى ستار الليل. وفى إحدى المرات، عنف أبو جهل ابن أخى خديجة وهويشق طريقه إلى الشعب، ودار جدال شرس بين الاثنين، ثم شارك فى النزاع الكلامى قرشى ثالث، ازدرى أن يمنع أبو جهل شخصًا من إرسال طعام لعمته، ثم ما لبث أن سدد ضربة قوية لأبى جهل بفك جمل، سرعان ما أوقعته على الأرض.

طوال ذلك الحصار، ؛ كان القرآن يذكر المسلمين بأن الأنبياء السابقين أنذروا أقوامهم وحاولوا إصلاح طرقهم فى الحياة، وعندما رفضت تلك الأمم ذلك، أهلكم الله؛ لأنهم خرجوا عن النظام الكونى للعالم:

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الكهف: ٥٩][٧٠].

يختلف البشر عن المخلوقات الأخرى، السمك والنبات والحيوان، والتى هى مسلمة بطبيعتها، ما دامت تعيش على قوانين الكون، أما البشر، فلهم إرادة حرة:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦]، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: ٢٩]، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢][٧١].

عندما يظلم القوى الضعيف، ويرفض الغنى أن يشرك الفقير فى ثروته، تنتهك قوانين الله، وتحل الكوارث. ولكن استمر القرآن فى حث المسلمين على الصبر، وعدم تحين فرصة الانتقام من أعدائهم.

كذلك كان هناك بعض رجال قريش الذين يتطلعون للسلام، وبعد فرض الحصار بقليل، عمد وفد منهم إلى محمد (ﷺ)، يقودهم قرشى مهيب كبير السن، اقترح حلاً وسطًا: تعبد مكة الله سنة، والآلهة الأخرى سنة أخرى. ولكن محمدًا (ﷺ) رفض العرض، ونزلت فى ذلك سورة الكافرون بعرض آخر:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الكافرون: ٢٥٦][٧٢].

يعبد الناس آلهة مختلفة، ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، الدين هو العقيدة، ولكنه أيضًا «طريقة الحياة» أو «القانون الأخلاقى». لكل إنسان دينه الذى يختاره، وليس هناك حاجة للإكراه على الدين.

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦][٧٣].

فى النهاية، أدى ولاء الدم إلى إنهاء الحصار، حيث طالب أربعة من المؤسسة الحاكمة فى قريش لهم أقرباء فى بنى هاشم وبنى المطلب بإنهائه، وبالرغم من الاعتراضات الغاضبة لأبى جهل، وافق الزعماء الآخرون. لابد أن ذلك كان يومًا مفرحًا للمسلمين، ورجع بعض المهاجرين إلى الحبشة، معتقدين أن الأيام السيئة قد ولت، ولكن كان ذلك تفاؤلاً زائدًا. ففى بداية (٣ ق. هـ/ ٦١٩م) توفيت خديجة، لقد كبرت فى السن، واعتلت صحتها من ظروف الحياة الخشنة فى شعب أبى طالب،

والحصار التجارى والاجتماعى. لقد كانت أقرب رفيق لمحمد (ﷺ)، ولم يستطع أحد، حتى أبو بكر أو عمر، أن يقدما لمحمد (ﷺ) ما قدمته خديجة. أطلق المؤرخون الأوائل على ذلك عام الحزن، إذ بعد رحيل خديجة بمدة قصيرة، رحل أبو طالب، فكان لذلك آثار أخطر وأسوأ على محمد (ﷺ). لقد دمر الحصار أبا طالب، ماليّا لتوقف تجارته، وصحيّا لما تحمله من مرارة العزلة، والانشقاق مع قريش، فسقط مريضًا ثم مات، وتولى رئاسة بنى هاشم أبو لهب.

***

obeikandl.com